الموقف من الجديد

د . أحمد المرايات

﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ ﴾ [ص : ٧]

هكذا وبهذه الدهشة تقابل الأفكار الجديدة .. وهي ردود أفعال ، يبدو أنها من طبيعة الإنسان والمجتمعات الإنسانية ؛ في موقف يخاف التغيير لأن فيه اتهام .. اتهام للشكل القديم أو التصور القديم أو الأسلوب القديم بالقصور أو العجز أو الضعف .. وفيه خوف من الخطأ أو الخطر عند تبني الجديد غير المعروف أو غير المجرّب .. أو الخوف من أن ينتزع هذا الجديد نفوذاً ما .. من مال أو سلطان! .

وإذا استطاعت هذه الأفكار الجديدة – وفق قانون تبادل الأدوار – أن تشق طريقها وتكتسب الأتباع ثم يتحول المجتمع أو جزء منه إلى صفها ، وتصبغ المقتنعين بها بلونها .. دام تأثيرها في الناس والمجتمع ما دام عند حامليها روح وحيوية وتضحية ، وما دام عند الدعاة إليها قناعات راسخة وثابتة وما دامت هذه الأفكار والدعوات تخدم المجتمع وتنسجم مع واقعه .

أما إذا جفّ نسغ الحياة في عروق هذه الدعوة ، وانعدمت الطاقة التي كانت متولدة في أعصابها ، وتجمدت مفاصلها عن الحركة ، كانت تلك مؤشرات لقرب الانتهاء ، وإذا أتت في هذه المرحلة أفكارٌ جديدة – من جديد – ، يقف

أتباع الأفكار الإصلاحية الأولى من الأفكار الإصلاحية الجديدة موقفاً عدائياً – كما وقف سابقوهم – ، ظناً منهم أنهم هم حملة الحقيقة .

وما ذكر سابقاً ينطبق على بعض الدعوات في عالمنا المعاصر [1] ، فهي بعد أن تنشأ على نحوٍ إبداعي على يد أفراد عباقرة ، وتستوي على سوقها وتثمر ، يصيبها داء الأمم من قبلها فتراوح في مكانها ويصيبها داء الجمود والتخشب ؛ وإذا لم ينتبه أتباعها والقائمون عليها إلى هذه الحقيقة المرّة ، وأن دعوتهم أصبحت شكلاً جامداً ، فقد دوره الفاعل الحركي في المجتمع ، وأن ضخ نسغ الحياة في عروق هذه الدعوة من جديد ، أمر لا بد منه لإعادة تحريك المفاصل فيها ، وقفت دعوتهم أمام عدة احتمالات :

- فهي إما أن تبقى في ظل الحياة الفاعلة ولكن تلعب فيها دوراً هامشياً
- أو تتفكك وتتآكل من داخلها وتضمحل
- أو تنشأ فيها الانشقاقات والصراعات وتقف عندها أمام احتمالات متعددة . والأشكال المذكورة هي شكل من أشكال المحنة لهذه الدعوات ما لم يقبل أصحابها التجديد ويستفيدوا من التاريخ ويسايروا سنن التغيير .

(١) المقصود هنا التغيير والإبداع في المجالات المسموح بها شرعاً .